

الدرس السادس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صَلَّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه الكبائر :

أبواب كبائر اللسان

باب التحذير من شر اللسان ؛ وقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]
وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] .

قال رحمه الله تعالى: «أبواب كبائر اللسان» ؛ عرفنا أن المصنّف رحمه الله تعالى قسم أبواب هذا الكتاب إلى أقسام، فبدأ أولاً بأبواب كبائر القلب، ثم انتقل إلى أبواب كبائر اللسان. ومعلوم أن القلب واللسان هما أخطر ما في الإنسان، فإن المرء بأصغريه: قلبه ولسانه ، ليس المرء بيده أو رجله أو جسمه، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه؛ فإذا صلح القلب صلح البدن، وإذا فسد القلب فسد البدن ، وكذلك الأمر في اللسان ؛ إذا استقام اللسان

استقام البدن، وإذا اعوجَّ اللسان اعوجَّ البدن، وفي الحديث -وسياقي عند المصنّف رحمه الله تعالى- ((إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ : اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمَّ مَا وَإِنْ اعْوَجَّجَتْ اعْوَجَّجْنَا))؛ وهذا يفيد أنّ الجوارح كلّها تابعة للسان، فإذا حفظ الإنسان لسانه وصانه فإنّ ذلك بإذن الله سبحانه وتعالى يكون صيانةً لجميع البدن، وإذا اعوجَّ اللسان وانحرف اعوجَّ أيضًا البدن؛ لأنّ ما يكون بلسان المرء ينعكس على جوارحه كلّها ، وهذا ممّا يدلّ على خطورة اللسان. واللسان حُلُقٌ للكلام، فإن لم يحفظه صاحبه في الكلام بخيرٍ وذكرٍ وطاعةٍ لله سبحانه وتعالى وأمورٍ مباحة، وإلاّ خاض في الباطل والحرام ، وسياقي قول النبيّ صَلَّى الله عليه وسلّم: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)).

قال رحمه الله: «بَابُ التَّحْذِيرِ مِنْ شَرِّ اللِّسَانِ» ؛ واللسان فيه خيرٌ وشرٌّ ؛ وخيرُ اللسان هو: ذكرُ الله، وتلاوةُ كلامه، والدَّعوةُ إليه، ومذاكرةُ العلم، والتَّناصح، فهذا كلّهُ من خير اللسان . وشرُّ اللسان: كلّ باطلٍ وفُحشٍ وغيبةٍ ونميمةٍ إلى غير ذلك من آفات اللسان التي يجب على المسلم أن يصونَ لسانه عنها. فاللسان فيه خيرٌ وشرٌّ، وهذه التَّرجمة معقودةٌ للتَّحذير من شرِّ اللسان.

قال: وقول الله تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ؛ «عبادُ الرحمن» العبوديّة نوعان:

١. عبوديّةٌ لربوبيّةِ الله سبحانه وتعالى؛ وهذه تشمل جميع الخلق ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مرم: ٩٣] .

٢. وعبوديّةٌ لألوهيّته: وهذه تختصّ بأصفياء الله، ومن وفّقهم الله سبحانه وتعالى لطاعته، ورحمهم جلّ وعلا وأدخلهم في رحمته؛ ولهذا أضافهم إلى اسمه الرحمن قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ ؛ وهذا فيه إشارةٌ إلى أنّ الله سبحانه وتعالى رحمهم واصطفاهم وهداهم إلى هذا الدّين العظيم.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ؛ في هذا السّياق في الآية وما بعدها تعدادٌ لصفاتِ عبادِ الرحمن بُدِئت بقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: أنّ مشيهم على الأرض بهذه الصّفة: هَوْنًا ، ليس بالمشي الذي فيه مثلاً الطّيش والتّهوُّر، وليس أيضًا بالمشي المتهالك المتماوت، وإنّما يمشون بهونٍ وسكونٍ وطمأنينةٍ ووقارٍ، فهذه صفة عباد الرحمن، مشيهم ليس فيه طيش ولا تهوُّر، وأيضًا ليس فيه تماوت، وإنّما مشي وقارٍ وسكينةٍ وطمأنينةٍ.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي: خطاب الجاهل، وهو يمشي في الأرض مرّ بجاهل فخاطبه خطاب جهل من فُحشٍ أو سبٍّ أو بداءٍ أو طعنٍ أو غير ذلك؛ ما الذي يصنعون؟ ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: قالوا قولاً سالماً من الإثم، لا يُقابلون جهل الجاهل بجهلٍ مثله، أو سبابه بسبابٍ مثله، أو فُحشه بفُحشٍ مثله، فيكونُ حالهم والجاهل سواء، بل إذا مرّوا بالجاهل قالوا سلاماً، أي: يقولون قولاً فيه السلامة، قولاً لا إثم فيه، لا يخوضون مع الجاهل في جهله أو سبابه أو فُحشه أو غير ذلك، وإنما يقولون قولاً فيه سلام؛ هداك الله، أصلحك الله.. أو نحو ذلك من الكلام النافع المفيد الذي هو سالم لا إثم فيه، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾.

قال: وقوله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [النقص: ٥٥] ؛ وهذا أيضاً من أوصاف أهل الإيمان، أنهم إذا سمعوا اللَّغو - واللغو: كلُّ باطل وكلِّ كلامٍ يُسخطُ الله سبحانه وتعالى - أعرضوا عنه، أي: لم تنصرف قلوبهم إليه، ولم تُقبل قلوبهم عليه، بل يُعرضون عن كلِّ لغوٍ وباطل، وهذا صيانةٌ لأنفسهم. والشيخ رحمه الله تعالى أورد ذلك في صيانة اللسان وشرِّ اللسان؛ لأنَّ اللَّغو هذا من شرِّ اللسان، والواجب على المسلم أن يُعرض عن اللَّغو ومجالس اللَّغو؛ لأنَّه إن جلس فيها وشارك أهلها خاض في اللَّغو مثلَ خوضهم، وخاض في الباطل مثل خوضهم.

قال: وقوله تعالى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ؛ وهذا فيه التحذير الشديد من شرِّ اللسان؛ لأنَّ كلَّ كلمة يقولها الإنسان مكتوبة عليه، فثَمَّة مَلَكٌ أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، وما يقوله من شرِّ وباطلٍ وفُحشٍ كُلُّهُ يُكْتَبُ عليه، وكلُّه سيجده في صحيفة عمله يوم يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى. فهذه الآية فيها أعظم تحذيرٍ من شرِّ اللسان، وأنَّ الواجب على العبد أن يصوِّن لسانه؛ لأنَّ كلامه من جملة عمله الذي يحاسبه الله سبحانه وتعالى عليه يوم القيامة، ومن عقل أنَّ كلامه من جملة عمله الذي يحاسبه الله عليه فإنَّه سيعمل على صيانة لسانه.

قال رحمه الله تعالى :

٢٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)) أخرجاه.

قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: أي إلى النَّبيِّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)) ؛ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ؛ ذكر الإيمان بالله: لأنَّ الله سبحانه وتعالى هو المعبود المقصود الذي يُتَوَجَّه إليه سبحانه وتعالى بالعبادة، ويُتَلَمَّس رضاه

جلّ وعلا. وذكر الإيمان باليوم الآخر: لأنّ اليوم الآخر هو يوم الجزاء والحساب. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [الشجم: ٣١]؛ فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه أن يعمل بما يقتضيه هذا الإيمان، ومن ذلكم قوله: ((فليقل خيراً أو ليصمت)).

وهذا الحديث فيه دعوة إلى وزن الكلام قبل أن يتكلّم الإنسان، أن يزن كلامه قبل أن يتكلّم بكلام، ((فليقل خيراً أو ليصمت)) متى يتحقّق للعبد هذا الوصف؟ إلّا إذا وزن كلامه قبل أن يتكلّم، عندما يريد أن يخرج الكلمة ينظر فيها ويتأمّل هل هي خيرٌ أو شرٌّ؟ نفعٌ أو ضررٌ؟ لا يتكلّم بأيّ شيءٍ يرد في ذهنه، بل يحصّ ويتأمّل ويتحقّق، فإذا تبين أنّ الكلام مباحاً أو سليماً فإنّه يتكلّم به، وإذا تبين أنّ فيه شرّاً وفيه ضررٌ كفّ نفسه عنه، والكلمة قبل أن يتكلّم بها صاحبها يملكها، وإذا خرجت منه ملكته، ولهذا العاقل الكيس يزن كلامه قبل أن يتكلّم به. قال: ((فليقل خيراً أو ليصمت)) في ضوء هذا الحديث إذا تأمّل الإنسان في كلامه قبل أن يتكلّم سيجد أنّ ما يريد أن يتكلّم به لا يخرج عن ثلاث حالات:

﴿الحالة الأولى﴾: كلامٌ تبين له أنّه صحيح ونافع ومفيد، مثلاً: حدّثته نفسه أن يسبح «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر»، أن يقرأ القرآن، أن يذكر الله، يشرع في هذا مباشرة؛ لأنّ هذا أعظم الخير، بل أحبّ الكلام إلى الله سبحانه وتعالى، فإذا تأمّل في الكلام ورأى سلامته وصحته، فإنّه يشرع في هذا الكلام النافع المفيد الذي هو خيرٌ ونفع.

﴿النوع الثاني من الكلام﴾: يتبين له أنّه شرٌّ، حدّثته نفسه بغيبة بنميمة بفحش بذاء إلى غير ذلك؛ فإنّ الواجب عليه أن يمنع نفسه من هذا الكلام.

﴿النوع الثالث﴾: حدّثته نفسه أن يتكلّم بكلام وتأمّل هل هو خيرٌ أو شرٌّ؟ لم يتبين له، لا يدري، وهذا يحصل لا يدري هل هو من الخير أو من الشرّ؟ متردّد، ما الذي يصنع في مثل هذا؟ هل يتكلّم أو ينتظر؟ قال عليه الصلّاة والسّلام: ((فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ))، وقال عليه الصلّاة والسّلام: ((دَعْ مَا يَرِيئُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيئُكَ)). فالكلام الذي لا يتبين للإنسان هل هو خيرٌ أو شرٌّ يوقفه حتى يتبين، إن تبين له أنّه خيرٌ تكلم، وإن تبين أنّه شرٌّ لا يتكلّم به، وإذا كان متردّد يوقف هذا الكلام، لا يُخرجه حتى يتبين.

قال رحمه الله تعالى :

٢٤ - ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنهما مرفوعاً: ((من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أضمن له الجنة)).

أوردَ هذا الحديث في الصحيحين عن سهل رضي الله عنه مرفوعاً قال: ((مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ)) ؛ ((مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ)) أي: اللسان ، ((وما بين رجليه)) أي: الفرج. وهذا الحديث فيه دعوة لصيانة اللسان وصيانة الفرج ، وأنَّ مَنْ صَانَهُمَا فَقَدْ ضَمَّنَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْجَنَّةَ. انظر هذا الضمان العظيم ((أضمن له الجنة)) الضامن مَنْ هو؟ الرسول عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. والأمر الذي يُنال بها هذا الضمان، أمران: حفظ اللسان، وحفظ الفرج . والشَّيء المضمون ما هو؟ دخول الجنة بحفظ هذين العضوين من الإنسان لسانه وفرجه ؛ يحفظ لسانه عن الحرام، ويحفظ فرجه عن الفاحشة.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥ - وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)). قال الترمذي: حسن صحيح.

قال: وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلت «يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟» ما هو أكثر شيء تخاف عليّ منه؟ «ما أخوف ما تخاف عليّ؟» وهذا السؤال من هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه وأرضاه يدلُّ على عِظَم حرص الصحابة رضي الله عنهم على السلامة والعافية من الشرور .
«ما أخوف ما تخاف عليّ؟» ؛ انتبه هنا! الصحابة رضي الله عنهم كانت أسئلتهم، كما أنَّهم يسألون عن الخير وأعمال الخير «أي العمل أفضل؟»، «أي العمل أحبَّ إلى الله؟» ، كما أنَّهم يسألون عن ذلك، أيضًا يسألون في الوقت نفسه على الأشياء التي تُجْتَنَّب ويُخْشَى منها، فهذا الآن الصحابي رضي الله عنه يقول: «ما أخوف ما تخاف عليّ؟»، حذيفة رضي الله عنه يقول: «كان أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ». الآن هذا الصحابي كان يسأل عن الشرِّ «ما أخوف ما تخاف عليّ؟» ، «وكنْتُ أسأله عن الشرِّ مخافةً أن يدركني» ؛ وهذا يفيدنا أنَّ المسلم كما أنَّه مطلوبٌ منه أن يعرفَ الخيرَ ليعملَ به، فإنَّه مطلوبٌ منه أن يعرفَ الشرَّ ليجتنبه .

وأيضاً هذا الحديث يفيدنا أنَّ عقد هذه الترجمة التي عقدها المصنّف رحمه الله بعنوان «باب التحذير من الشرِّ» أمر مطلوب. وكان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يسألون النَّبِيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم عنه ، قال: «ما أخوف ما تخاف عليّ؟» ما هو أشدَّ شيء تخاف عليّ منه؟.

قال: ((فأخذ بلسان نفسه ثم قال: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) أي: احذر من شرِّ اللسان ، وإذا وُقِّقَ العبد لكفِّ اللسان عن الشرِّ، لأن قوله: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) أي: كفَّه عن الشرِّ لا عن الخير ، «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» أي كُفَّه

عن الشَّرِّ وعن كلِّ ما حرَّمه الله سبحانه وتعالى . فإذا كَفَّ الإنسانُ لسانَه عن الشَّرِّ كُفَّتِ الجوارح عن الشَّرِّ تَبَعًا له ، كما سيأتي معنا في الحديث ((فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفَرُ بِاللِّسَانِ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِيمَا فَاَتَمَّا نَحْنُ بِكَ ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا)) ، فإذا اعوجَّ اللِّسانُ اعوجَّت الجوارح ، وإذا كُفَّ اللِّسانُ كما في هذا الحديث ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) كُفَّتِ الجوارح تبع للسان . ولهذا قال بعض السلف: «ليس هناك شيء - يعني من أعمال الإنسان - إذا فعله العبد تبعته الجوارح إلا اللِّسان» ، لا يرى أحدٌ صان لسانه إلا وصلحت أعماله كلها.

قال رحمه الله تعالى :

٢٦ - وله وصححه عن معاذ رضي الله عنه قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ((ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم)).

قال: وله -أي: الترمذي رحمه الله- وصححه، عن معاذ أي: ابن جبل رضي الله عنه قال: قلت: «يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟» ؛ هذا السؤال من معاذ رضي الله عنه على إثر بيان النبي صلى الله عليه وسلم له بعظم شأن اللِّسان ، بعد جملة من الوصايا قال له عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام ((أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَا يَكُ ذَلِكَ كَلِمَةً؟)) قلت: بلى، يا رسول الله. قال: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) ، مثل ما تقدّم معنا في حديث سفيان: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) وأخذ بلسان نفسه.

«فقلت: يا رسول الله! أوإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟» ؛ وهذا يفسر قوله: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) أي: عن الشيء الذي تُؤاخذ عليه، يعاقبك الله سبحانه وتعالى عليه، الكلام المحرّم، الكلام الباطل ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)). قال: «وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟» قال: ((ثكلتك أمك يا معاذ)) ؛ معنى «ثكلتك أمك»: أي فقدتك ، فقدتك أي: بالموت. هذا ظاهر الحديث، لكنّ الكلمة ولها نظائر جرى استعمال العرب لها ولا يقصدون الدّعاء على الشخص، والنبي عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام لما قال: ((ثكلتك أمك يا معاذ)) لم يقصد الدّعاء عليه. ولما يقول عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((تَرَبَّتْ يَدَاكَ)) وهذا معناه الدّعاء بالفقر، ليس مقصودًا بالدّعاء وإنما يجري على اللِّسان في مقام مثلاً التّعجب، وهنا يتعجب النبي صلى الله عليه وسلم من غفلة معاذ رضي الله عنه عن هذا الأمر، وخطورة هذا اللِّسان.

قال: ((ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكبُّ الناس على وجوههم -أو قال- على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!)) وهذا فيه أنّ اللِّسان من أعظم أسباب دخول النار. وسبحان الله! من يتأمل يجد أنّ جلّ المعاصي وأكثرها من ورائها اللِّسان؛ يبدأ اللِّسان يتكلم ثم تأتي المعصية بعد ذلك من زنا وفواحش ومحرمات إلى غير ذلك،

أَوَّل ما تكون البداية اللِّسان، ثمَّ تتبعه الجوارح ، فإذا صان الإنسان لسانه سلِّم مما وراء ذلك من فواحش وأُمور حرَّمها الله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

٢٧ - وله عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: ((إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا)) . قوله «تكفر» أي تذلل وتخضع.

قال: وله أي الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: ((إذا أصبح ابن آدم)) هذا يكون في كلِّ صباح .
((فإن الأعضاء كلها)) أي: جوارح الإنسان جميعها؛ اليد، والقدم، والأذن.. وغير ذلك
((فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان)) ما معنى تكفر اللسان؟ قال: «تذلل وتخضع» ؛ كلِّ صباح تعلن الجوارح للسان بأنها تابعة له، وأنَّ الشَّيء الذي يكون عليه اللسان يكون على الجوارح ، تكفر اللسان أي: تخضع وتذل له، تقول: نحن تبع لك، الشَّيء الذي تكون عليه، تكون عليه الجوارح .
((تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك)) يد الإنسان، قدمه، أذنه، فرجه.. إلى غير ذلك من أعضائه وجوارحه كلها ((تكفر اللسان تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا)) وهذا فيه أن اللسان أمير للبدن، وأعضاء الإنسان كلها تابعة له، فإن استقام البدن، وإن اعوجج اللسان اعوجج البدن، وهذا يدل على خطورة اللسان، كما أنَّ الحديث الذي تقدَّم معنا ((ألا وإنَّ في الجسدِ مُضْغَةً إذا صلحت صلح الجسدُ كُلُّهُ وإذا فسدت فسَدَ الجسدُ كُلُّهُ ألا وهي القلب)) يدل على خطورة القلب.

والحديثان معاً يدلان على أنَّ المرءَ بأصغريه. وقد جمع النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدُّعاء ما يشمل الأمرين في قوله: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا)) ؛ وهذه دعوة عظيمة جدًّا في إصلاح هذين الأصغرين: القلب واللسان. «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا» ؛ فإذا وُفِّقَ العبد لسلامة القلب وصدق اللسان صلحت الجوارح كلها بإذن الله تبارك وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

٢٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزلُّ بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب)) أخرجاه.

قال: وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا)) لا يتأمل يلقيها هكذا جزافاً مستعجلاً مندفعاً ما يتبين ؛ وهذا فيه دعوة لكل مسلم أن يتبين كلامه قبل أن يتكلم به ، أمّا أن يلقي الكلام ولا يتبين هذا الكلام هل هو شرّ هل هو خير؟ هل هو ضلال هل هو هدى؟ لا يجوز، بل ينبغي عليه أن يتبين، لماذا؟ لأنّه سيحاسب عليه، وسيدخل في جملة عمله.

((إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزُلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَوْ يَبْقَى فِيهَا)) أي: يزل بها في النار في مسافةٍ صحيحة . وهذا ممّا أيضاً يدلّ على خطورة الكلمة التي يتكلم بها الإنسان ، كلمة واحدة تخرج من الإنسان قد تُوبق وتُهْلِك دنياه وأخراه والعياذ بالله.

قال رحمه الله تعالى :

٢٩ - وللترمذي وصححه عن بلال بن الحارث رضي الله عنه مرفوعاً: ((إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ، وَإِنْ الرَّجُلُ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ)).

قال: وللترمذي وصححه عن بلال ابن الحارث رضي الله عنه مرفوعاً ((إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ)) أي : كلمة فيها رضا الله سبحانه وتعالى، وأعظم ما فيه رضا الله: الكلمات الأربع التي صحّ عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنّه قال: ((أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ))، وهذه الكلمات الأربع هي أعظم الكلمات شأناً وأولى الكلمات على الإطلاق أن يُكثّر المرء منها وأن تكون على لسانه يردها، «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» فإنّها أحبُّ الكلام إلى الله، ويقول عليه الصلوة والسلام: ((لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)) ، وقال عليه الصلوة والسلام: ((بَخٍ بَخٍ، لَحْمَسٌ مَا أَنْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَقَّى لِلْمُسْلِمِ فَيُحْتَسِبُهُ))، فهذا كلّهُ ممّا يدلّ على فضل هذه الكلمات.

((إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ)) ما يظنّ أنّ الثواب الذي يلقاه وتثقل به موازينه يبلغ هذا المبلغ، وما عند الله سبحانه وتعالى من الخير أعظم وأعظم ممّا يتصوّره العباد ، وإذا كان قد جاء في الحديث أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا يَمِينِهِ ثُمَّ يُرِيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرِي أَحَدُكُمْ فَلُوهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ)) ، تمرة ويجدها يوم القيامة مثل الجبل! كلمة واحدة من رضوان الله يتكلم بها ما يظن أنّها تبلغ هذا المبلغ في الثواب لكن يرى عليها

ثوابًا عظيمًا. وهذا فيه حثٌّ على العباد أن يحرصوا على كلِّ كلام فيه رضا الله سبحانه وتعالى ؛ لأنَّه لا يدري الإنسان ماذا سيكون له من مثوبة وأجر ودرجات ورفعة عند الله بكلمةٍ ربَّما لا يظنُّ أنَّها تبلغ هذا المبلغ في الثواب والأجر من الله سبحانه وتعالى .

((ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه)) ؛ انظر أيضًا «يكتب بها رضوانه إلى يوم يلقاه» هذا يفيد أنَّ المرء قد يقول كلمة طيبة صحيحة مباركة تكون سببًا لثباته على الدِّين ، تثبيت الله سبحانه وتعالى له على الدِّين؛ لأنَّه قال: ((يكتب له بها رضوانه إلى يوم يلقاه)) هذا يتضمَّن أنَّ الله سبحانه وتعالى يثبتُه على الحقِّ والهدى وعلى الأعمال التي ترضي الرَّبَّ سبحانه وتعالى.

قال: ((وإنَّ الرَّجل ليتكلَّم بالكلمة من سخط الله ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه)) ؛ وهذا مقابل الأوَّل، وفيه خطورة الكلمة التي من سخط الله سبحانه وتعالى ، وقد يقول الرَّجل كلمة من سخط الله تُهلكُ دُنياه وأُخراه ، قد يكون الرَّجل الذي قال هذه الكلمة رجلًا عابدًا محافظًا على الصَّلوات والعبادة والصِّيَام وقيام اللَّيل إلى غير ذلك، ثمَّ يقول كلمة من سخط الله تُهلكُ دُنياه وأُخراه .

قال: ((وإنَّ الرَّجل ليتكلَّم بالكلمة من سخط الله تعالى ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه)) ما هو المثل على ذلك؟ في أن يكون رجل عابد ومصلِّي وصائم وقيام ليل وذكر، ثمَّ يتكلَّم بكلمة من سخط الله وتكون هذه الكلمة سببًا لهلاكه في دُنياه وأُخراه؟ انظروا ذلك في الحديث التَّالي.

قال رحمه الله تعالى :

٣٠ - ولمسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعًا: أن رجلا قال: «والله لا يغفر الله لفلان؟» فقال الله عز وجل: ((من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟! إني قد غفرت له وأحببت عملك)). وروي أن القائل رجلٌ عابد، قال أبو هريرة : «تكلّم بكلمة أوبقت دُنياه وآخرته» .

انظر هنا ؛ رجل عابد مواظب على العبادة وقال كلمة واحدة ، قال: «والله لا يغفر الله لفلان» ، رأى شخصًا متماديًا في الشَّرِّ ، متماديًا في الحرام فحلف هذه اليمين «والله لا يغفر الله لفلان» فغضب الله؛ لأنَّ هذه الكلمة من سخط الله، هذه الكلمة فيها تألَّى على الله، حلف على الله أنَّه لا يغفر، هذا تألَّى وتعدَّى وظلم وقول على الله سبحانه وتعالى بالباطل وبغير علم.

فقال الله عزَّ وجلَّ : ((مَن ذا الَّذي يتألَّى عليَّ ألاَّ أغفر لفلان؟)) من ذا الَّذي يحلف ألاَّ أغفر لفلان؟ ، المغفرة بيد الله عزَّ وجلَّ يغفر لمن يشاء سبحانه وتعالى ، قد يكون الإنسان من أكفر النَّاس ويشرح الله صدره للإسلام

وَيَمُنُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ٨] ، الأمر بيده سبحانه وتعالى .

قال ((مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ)) انظر خطورة هذه الكلمة!! ((أحبطتُ عملك)) كلمة واحدة، وهي قول: «والله لا يغفرُ الله لفلان» كانت سببًا لحبوط عمله. وبعض النَّاس يَرى في بعض الأشخاص تجاوز وتعدي وكذا ربما يتجرأ على مثل هذا، "هذا بعيد عن الهداية، وهذا لا ينال الهداية، ومثل هذا لا يمكن أن يهتدي"، أو مثل هذا الكلام، الهداية أمرها بيد الله، ولا يجوز للإنسان أن يتألى، وإذا كان أيضًا يحلف بأنه لا يُغفر له أو أنه لا يهتدي فهذا -والعياذ بالله- من الكلام الذي يُهلك صاحبه في الدنيا والآخرة. قال: ((وأحبطتُ عملك)).

انظر فقه أبي هريرة رضي الله عنه قال: « تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ -أي: أهلك- دُنياه وآخِرته» فهذا شاهد لما سبق في قول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)).

نسأل الله الكريم، أن يحفظَ ألسنتنا أجمعين، وأن يصونها عن كلِّ ما يسخطه سبحانه وتعالى ، اللهمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الثَّبات في الأمر والعزيمة على الرُّشد، ونسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، ونسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ، ونسألك قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا، ونسألك من خير ما تعلم ، ونعوذ بك من شرِّ ما تعلم ، ونستغفرك ممَّا تعلم ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللهمَّ اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات. اللهمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا، اللهمَّ متّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا ما أحييتنا واجعله الوارث مِنَّا ، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر هَمِّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلِّط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبيِّنا مُحَمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين.